

محاور الموضوع الرئيسية:

- مفهوم النبوة الخاتمة.
- هدف بعثته ورسالته ومقامه في كلام الله تعالى.
- مقامه في كلام الأمة ﷺ.
- قبس من مقامه الاجتماعي.

الهدف:

التعرف على مفهوم النبوة الخاتمة، ومقام نبي الإسلام محمد ونبوته.

تصدير الموضوع:

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (١).

(١) الأحزاب، ٤٠.

١- مفهوم النبوة الخاتمة:

يُطلق (الختم) على البلوغ إلى آخر الشيء نحو ختمت القرآن، أي انتهيت إلى آخره، و(خاتم النبيين) لأنه ختم النبوة، أي تممها بمجيئه (١)، و(خاتم النبيين) آخرهم الذي ختمهم، أو ختموا به - على قراءة عاصم - بالفتح، و(الخاتم) - بفتح التاء - على معنى المصدر، أو هو فعل مثل قاتل - بمعنى: ختمهم. وقال الآخرون: اسم بمعنى آخرهم، وقيل: هو بمعنى المختوم به النبيون، كما (١) الراغب، المفردات، مادة (ختم).

يختم بالطابع، ويُقرأ بكسرهما بمعنى آخرهم (٢). ومحمد - خاتم النبيين - يجوز فيه (فتح التاء، وكسرهما)، فالفتح بمعنى الزينة مأخوذ من الخاتم الذي هو زينة للألبسة، والكسر اسم فاعل بمعنى الآخر. (٣)

ويؤكد القرآن على (ختم) النبوة، وآياته لا تبشّر بنبي جديد. فقد جاء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ، وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾؛ إلا أن أحاديثاً كثيرة وردت حول آيات قرآنية عديدة تؤكد على استمرار خط النبوة بامتداد خط (الإمامة)، وهذا الاستمرار، في الواقع، هو انتصار لخط النبوة وازدهار لمقوماته التكاملية.

وهناك نصوص تُصرح أن رسالات الأنبياء، وخصوصاً أنبياء بني إسرائيل كانت مؤقتة، ومختصة بزمان خاص، وباعتبار التفاوت الزمني فإن النصوص المتأخرة عنها، الإسلامية بالخصوص، أفادت بأن صفة الورثة بعد الرسالة المحمدية تختص (بالعلماء) الربانيين، القيمين (العلماء ورثة الأنبياء)، وأن (علماء أمي) كما يقول الرسول محمد ﷺ - كأنبياء بني إسرائيل، ما يُعطي (الامتداد) الطبيعي لتكامل العقل الإنساني، وتطوره للوصول إلى مرحلة

(٢) التبيان في أعراب القرآن، ج ٢، ص ١٠٠، ويراجع بالصدد: سبحاني، جعفر، معالم النبوة في القرآن الكريم، ص ١٢٤ وما بعدها.
(٣) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، ج ٦ (بيروت، ١٩٨٢ م)، تحقيق أحمد الحسيني، ص ٥٤.

التجدد، والتجاوز. ويظهر من الأحاديث الواردة أن للأنبياء والرسول طبقات حددتها بعض الأحاديث بأربع (٤) تبعاً لنوعية تلقي الأنبياء، الأمر الذي يُحدد مهماتهم، ومسؤولياتهم في المجال الذي بعثوا إليه كمن بعث إلى طائفة قلت، أو كثرت كيونس الذي تحدّث عنه القرآن بهذه الآية: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (٥). كما ورد - في أحاديث أخرى - تمييز طبقة عليا من الأنبياء وصفهم حديثاً بأنهم (سادة النبيين والمرسلين) (٦)، وهم (أولوا العزم) وعبر عنهم الحديث أنه (عليهم دارت الرحي)، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد.

٢- هدف بعثته ورسالته: الرحمة بالبشر والتزكية والتربية لهم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾ (٧) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٨).

ولقد نصّ القرآن الكريم على بشارة إبراهيم الخليل ﷺ برسالة خاتم النبيين ﷺ بأسلوب الدعاء قائلاً - بعد الكلام عن بيت الله الحرام في مكة المكرمة ورفع القواعد من البيت والدعاء

(٤) الأصول من الكافي، ح ١، ص ١٧٤.
(٥) الصافات: ١٤٧.
(٦) الأصول من الكافي، ح ١، (كتاب الحجّة)، ص ١٧٥.
(٧) (الجمعة، ٢).
(٨) (الأنبياء، ١٠٧).

إليه يصعد الكلم الطيب

يقول لشيء لا، وأما علاقته بأصحابه: قال تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ يقسم لحظاته بين أصحابه، فينظر إلى ذا وينظر إلى الله جل جلاله، ولم يبسط رسول الله جل جلاله بين أصحابه قط، وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله جل جلاله يده من يده حتى يكون هو التارك...»^(١٥).

- الجود والحلم: قال تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١٦). وقد روي أنه ما سئل النبي ﷺ شيئاً قط فقال لا، وأنه عفا عن قريش التي عتت أمر ربها وحاربته بكل ما لديها، وهو في ذروة القدرة قائلاً لهم: «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون... اذهبوا فأنتم الطلقاء». وروى أن رجلاً كلم النبي ﷺ فأرعد، فقال: «هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ».

- الزهد: عن النبي ﷺ قال: «عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»^(١٧).

ويذكر المؤرخون أنه كان يرفع ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويأكل مع العبد، ويجلس على الأرض، ولا يمنعه الحياء أن يحمل حاجته من السوق إلى أهله، ويصافح الفنى والفقير، ولا ينزع يده من يد أحد حتى ينزعها هو.

(١٥) (أصول الكافي، ج ٢، ح ١).
(١٦) (التوبة ١٢٨).
(١٧) (سنن الترمذي، ٤ / ٥١٨، حديث ٢٣٧٧).

رِيحُكُمْ....»^(٨).

٤- مقام النبي ﷺ في كلام الأئمة عليه السلام:

أ- عبادة رسول الله ﷺ: عن أبي جعفر عليه السلام قال: «وكان رسول الله ﷺ يقوم على أطراف أصابع رجله فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾»^(٩)،^(١٠).

٢- خوفه في الله تعالى: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما كان شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من أن يظل خائفاً جائعاً في الله عز وجل»^(١١).

ج- شوقه الدائم للقاء الله ومناجاته: تجلّت عبوديته ﷺ في قوله وسلوكه حتى قال: «قرّة عيني في الصلاة»^(١٢)، وكان ينتظر وقت الصلاة ويشدّ شوقه للوقوف بين يدي الله تعالى، وكان كثير الدعاء، حتى قال «الدعاء مخ العبادة»^(١٣).

د- قربه من الله تعالى: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لما عرج برسول الله ﷺ انتهى به جبرائيل إلى مكان فخلّى عنه، فقال له: يا جبرائيل تخلّيني على هذه الحالة؟ فقال: امض، فوالله لقد وطئت مكاناً ما وطئه بشر، وما مشى فيه بشر قبلك»^(١٤).

٥- قيس من مقامه الاجتماعي:

- قال الإمام علي عليه السلام «كان النبي ﷺ إذا سئل شيئاً فأراد أن يفعله قال: نعم، وإذا أراد أن لا يفعل سكت، وكان لا

يقبول عمله وعمل إسماعيل عليه السلام: ربنا وابحث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم».

٣- مقام النبي ﷺ في كلام الله تعالى:

- رسول الله: قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾^(١)، ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢)، ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

- «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...﴾^(٤).

- صاحب الخلق العظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٥).

- الأسوة الحسنة: ﴿.. لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾^(٦).

- سيد الرسل وأعظمهم وخاتمهم: قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾^(٧)، وقال النبي ﷺ لعلي عليه السلام «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

- تخصيصه بالإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى...﴾^(٨).

- الأمر الإلهي بوجوب طاعته واحترامه، قال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ

(٨) (الأنفال، ٤٦). وراجع النساء، ٥٩ - الأنفال، ١ / ٢٠ - التباين، ١٢ - والحجرات، ٢) وغيرها.
(٩) (طه، ١-٢).
(١٠) (أصول الكافي، ج ٢، ح ٦).
(١١) (روضة الكافي، ح ١٧١).
(١٢) (أمالي الطوسي، ٢ / ١٤١).
(١٣) (المحجة البيضاء، ٢ / ٢٨٢).
(١٤) (أصول الكافي، ج ١، ح ١٢).

(١) (آل عمران، ١٤٤).
(٢) (يس، ٣-٤).
(٣) (الفتح، ٢٩).
(٤) (القلم، ٤).
(٥) (الأحزاب، ٢١).
(٦) (الأحزاب، ٤٠).
(٧) (الإسراء، ١).